

الدواء الذي يخلق العبقريّة

للسير ما كسر يمبرتوت
بقلم الأستاذ دريخي خشبة

لقد قرر أطباؤها في رومة
والبنديقية أنها لن تعيش أكثر
من ستة أشهر... وقد جزعت
لذلك جزءاً شديداً... بيد
أنني ضربت برأيهم عرض
الأفق، ثم فرغت لتطبيبها
بنفسي، معتمداً على تجاربي...

فانظر إليها الآن، وقل لي ما رأيك في هذا الشاب
الريان، وذاك الإهاب الفينان... أليست هذه
معجزة يا جون؟

ولم تكن في رأس الرجل أثارة من الوعي يدرك
بها الجمال المجسد في الفتاة الجالسة أمامه... ولم
يثر خاطره مرأى هذا الأمير أوتو... الرجل
المجيب... الذي اشتعل الشيب في رأسه، والذي
أصبح اكتشافه العلمي الخطير حديث الأهالي في
لندن العتيقة، والذي فر من العالم الواسع صاحب
لينزوي في هذا المنزل السحيق في بركلي سكوير،
ليعيش فيه كما يعيش سحرة الشرق ومشعوذوه

وهكذا جلس الرجل الساذج جلسة بلهاء
لا يعنىها شيء من هذا الجو الهادي الذي انعمت
فيه سحائب البخور، وتهددت إليه نغمت
الأرغون التي أنشأت ترن في بطن الوادي القريب،
فتردد أصداؤها أكوام البلور وأطباق المرمر
البندق المرصوة على المائدة الفخمة وسط الغرفة
الرائحة... لا... لم يُعن جون، تاجر الأصواف
الانجليزي الذي تزح من لندن إلى دلاشيا ليعقد
فيها بمض صفقائه التجارية، بشيء مما حوله في
غرفة هذا الأمير أوتو... ولم يشغله شيء من
جمال هذه الحسنة الإيطالية الفتان التي تأسر

... وقال الأمير وهو يضع الشمعة وراء
القاورة التي بين إصبعيه فيضيء السائل الذي
فيها: « على أنني لا أدري ما ذا يمنع أن يوجد
عقار يجلب الذكاء ويخلق العبقرية كهذه العقاقير
التي تشفي الأجسام وتطبها، وتجعلها قوية البناء
مفتولة العضل!! »

واستولى العجب على جون ما كسفيد أوف
برادفورد... الرجل الساذج... الذي كان البله
يترجرج دائماً في حدّ قتيه، فاعتدل وقال: « أتعني
أنه في وسعك أن تخلق عقولاً لمن ليس لهم عقول؟ »
وكان الأمير أوتو ينتظر أن يلقي عليه هذا
السؤال، فتبسم ثم قال: « حقاً يا جون... ولم لا؟
أبدأ لم يخامرني الشك في هذا أبداً... وإني لمقتنع
جداً أننا نستطيع أن نبني الأذهان فنجعلها ذكية
عبقرية كما استطعنا أن نبني الأجسام فجعلناها عقلية
حديدية... والأمور سهل يا جون... فكما استطاع
الطب أن يعالج إين العظام في الأطفال، فكذلك
نستطيع نحن أن نزيد المادة السنجابية التي تكسو
تلافيف المخ في رأس الشخص الأبله فيصبح ذكياً
متوقد الدهن... وإليك مثلاً يا جون، ابنتي حنة
هذه الجالسة أمامك، فلقد مرضت منذ اثنتي عشرة
سنة مرضاً خطيراً، أشفت منه على الهلاك، حتى

بملكك بشرط ... أن تثق بي ثقة عمياء غير محدودة
وأن تخضع إرادتك لي إخضاعاً مطلقاً ، وأن تصنع
ما أمرك به من غير مناقشة ولا استقصاء ! »
ولوى جون عنقه ، فتأرجح رأسه من فوقه
كالذي يوافق وإن لم يقتنع ، ثم قال :
— وعملى ؟ !

فهز الأمير كتفيه وأجابه : أأنت رجلاً غنياً
واسع الثراء ؟

فارتبك جون وقال : أوه ... من هذه الوجهة
فأنا غنى
فقال أوتو : وقد حملت أحلاماً طائلة بالشهرة
والمجد ؟

فقال جون : حقاً لقد فمت ، ولقد فكرت
ألف مرة أن في الدنيا أشياء عظيمة ، ومطامح
واسعة غير تجارة الصوف ! »

فأجابه أوتو : إذن ليس عليك إلا أن تكل
نفسك إلى ، وأنا كفيل بمنحك الذكاء الذي تريد ،
والعبقريّة الواسعة التي تشتهي !

فنظر جون إلى القارورة الصغيرة في بَلِّه
وغرارة وقال : « من هذه القارورة ؟ ! » وهنا
تبسم أوتو وتناول القارورة ، ثم جعل الشمعة من
ورائها فاختلط أضواؤها بالسائل العجيب مرة
أخرى ، ونظر جون إلى القارورة فشعر كأن سحرها
ينتقل إليه ، وكأن أضواءها تختلط بروحه ، ونظر
حواله فوقعت عيناه على طاس الأزهار على المائدة ،
فراها أجمل مما عهدتها وأنضر ... وخاف الرجل
الساذج مما أحس ورأى ، فانتصب واقفاً ثم
قال : « إنك تمزح أيها الأمير أوتو .. إنك تهزل »

بجمالها الأبالسة ... ولم يشغله أوتو نفسه بهذا
البريق الخاطف المنبث من عينيه اللؤلؤيتين ،
بل ، لقد نظر حوله في غرارة وغفل ثم
قال : « شيء مذهش حقاً أيها الأمير ... لطالما
فكرت قبل اليوم في أن يكون لي عقل عبقري
راجع ليكون لي به مراكز ممتاز في الحياة
العامة ... وطالما كنت أنظر إلى رئيس وزارة
بلادى ، وتأخذني الغيرة من إعجاب الناس به ،
واستعظامهم له . مع أنه رجل عادي لا ميزة له على
الجاهل إلا هذا اللسان الدرب الفصيح يخلب
ألبابهم به ، وإلا عقله الراجح الذي يروى به في
الأمور ويسير به دفة الدولة ويصرف شئونها ...
لقد كنت أنظر إليه وقد التفت حوله الآلاف المؤلفة
من الناس يصفون له ويستمعون إليه ، فتأخذني
الغيرة وتنشب أظفارها في صدري ... وكنت أقول :
« جاهل من الدهاء يسحرها رجل بهرج القول »
ولكني كنت أرى مئات العقلاء بعد ذلك يحدقون
به ليأخذوا عنه الحكمة وحسن البصر بأمور الحياة
فأرجع إلى نفسي ، وأبث أتمنى لو أوتيت من الذكاء
بعض ما أوتي هذا الرجل الثمار اللبق ... فإذا
كنت تضمن لي ذلك بهذا السائل الذي في قارورتك
فإنك تكون رجل المجائب حقاً ... ! »

وتناول الأمير لفافة فأشعلها في هدوء ثم أخذ
يُدخن ، وينفث الدخان في صمت ... وقال بعد
لحظات « عزيزي جون ما كاسفيلد ... إذا وكنت
إلى نفسك لمدة ستة أشهر ، فليس أيسر على من
أجملك خطيباً من أبلغ خطباء العالم ، ومفكراً
عبقرياً من أعظم مفكره بحيث تنمو على حكماء

وطول تعجبه ... وعلى كل ، فقد انتظر الوالد في تلهف شديد جواب ابنته ، التي انفرجت شفتاها عن ابتسامة رقيقة خبيثة وهي تجيبه فتقول : « والله يا أبى إني لا أدري ماذا أقول ! من يستطيع أن يفهم هؤلاء الأنجليز ؟ إن براعتهم المدهشة هي في هذا الصمت العجيب ! » ، وكأنما سلم أبوها بهذا الرأي ، فقال : « إن للأنجليز عقولاً . ولكنها ليست كمعقولانا يا ابنتي . على أنها عقول تنتسب إلى بيتها ومناخها الذي نشأت فيه ... وهذا هو السر في قصور عقلية ذلك المسترجون ما كلسفيلد ... فهو يعيش في دنيا كلها صوف ، وهي لذلك كلها أغنام ومروج ، وليست شيئاً غير الأغنام والمروج يا حنة .. إنه لا شك يفكر كثيراً في مزاجنا الخفيف الشعري المرح ... مزاج شعوب هذا البحر الأبيض المتوسط ... هذا المزاج الذي ترعرع في آلاف من سنين الشمس والموسيقى ... وهل الخ إلا هذا الغشاء الرقيق الذي يستطيع الصوت والضوء أن يلعبا فوقه ... وليس الصوت والضوء فقط ، بل إرادة الناس الآخرين ... وذاك هو ما نسميه التعليم أو التهذيب ، الكتابة فوق غشاء الخ بيد مهبذة صناع ! فإذا أردت ، جعلت هذا المسترجون يرى ألف رؤيا عجيبة في هذه اللحظة ... الآن ... بحيث ينهض فيفتح يديه أبواب عالم واسع شاسع لم يكن له به عهد من قبل ، فيسمع كلمات لم تتردد أبداً في أذنيه وسرعان ما يرددها هو ؛ وينطق بها لسانه ، وقد يجتمع الناس حوله فيشهدون أنهم لم يكونوا يعرفون هذا المسترجون من قبل ... وهكذا يذيع اسمه في الآفاق ، وقد ينسى عالم

ومن غير أن يستأذن انفتل من الغرفة ، ثم من المنزل جميعاً ...

ولاحظ الأمير أن ابنته تتبع الرجل بنظرات حادة ، فاستطاع أن ينفذ منها إلى سرائر نفسها ، وراح يتحدث إلى نفسه هكذا : « أوه يا حنة ! لقد فتكت الأنجليزى من غير ريب ! لقد رأيت الفارق العظيم بينه وبين الأجلاف الذين شهدتهم في إيطاليا ... الرجل جميل يا حنة ... وأمين ... وبناء جسمه يجذب داعي النساء ، وهذه ملاحظة لا يدركها إلا علماء وظائف الأعضاء ... أوه ! إن هذا الرجل ، إن جون ما كلسفيلد ليس في رأسه ذرة من الذكاء لكن له كاهلاً عريضاً ، وكتفين عظيمين ؛ ثم شعره ... شعره السكسوني ! مسكينة يا ابنتي ! إنها لا شك تعبه ، وتتمنى لو تزوجه ، إذا رزقه الله قليلاً من الذكاء !

والتفت إلى حنة فجأة ثم قال : « حنة ! ماذا ترى في هذا المسترجون ما كلسفيلد ؟ »

وكانت حنة قد انصرفت إلى الأرغون ، بعد إذ انصرفت الأنجليزى تاجر الأصواف ، تلعب عليه بعض قطعها وكانت نار الموقد تتوقد وتلهب قريباً منها ، فلما التفتت إلى أبيها تجيبه انعكس ضوء اللب على شعرها الذهبي الأحمر ، فبدا وجهها الجميل الناصع كأنه وجه صورة فتاة أمام مصباح خافت ذى ذبالة ترقص وتلتفض

وقد يحسب الانسان أنه من الشذوذ ، أو أنها مبالغة شاذة ، أن هذا الجمال الرائع لم يجذب إليه عيني جون ما كلسفيلد .. ولكن هذا هو الذي استنتجته الأمير أوتو ، وهو أيضاً الذي كان موضع دهشة

الطاريء واقعا مستديما ؟ إن مشروعي ليس مستحيلا
كما يتصور بعض الناس ، وهو بالضبط كالشروع
الذى أدى إلى اختراع التصوير الشمسى ... فقد
كان الناس يرون صورهم واضحة جلية على الزجاج
والمرايا ، لكنهم يمجزون دائما عن تثبيت هذه
الصور على الزجاج وتلك المرايا ... ثم أفلحوا ...
فتحقق الحلم ، وأصبح التصوير الفوتوغرافى حقيقة
واقعة ملموسة ، بعد أن كانت وسواسا كهذا
الوسواس الذى يجول فى ذهن آكل الأفيون

وعلى هذا النحو كان اختراعى لهذا العقار الذى
أستطيع أن أثبت به الصور والأخيلة فى ذهن النبى
من الأغبياء ، فيكون من أذكى الأذكاء ...
وسيرى الناس كيف أقلب لهم العالم باختراعى رأسا
على عقب ... آه يا حنة ! لقد طالما فكرت فى هذا
كله يا ابنتى ، منذ أن طردتنا الحرب الكبرى من
أوطاننا ، وأخذت الحياة تسومنا الخسف فى هذا
المنفى السحيق ... لقد قاست الدنيا رزايا لا حصر
لها منذ جهل الناس أحلامهم اللذيذة التى كانت
تخلق لهم مثل الفضيلة العليا ... تلك الأحلام التى
كانت تشجذ الذكاء الذى لو توفر لحال دون وقوع
الحرب الكبرى ... إنه لا هم للناس إلا بناء الأجسام ،
وليس فيهم من حاول أن يبني الأذهان ... وقد
وقفوا جهودهم كلها على معالجة أمراض البدن ،
فهم دائما يجهدون فى منحنا لحما وعظاما ودماء ...
وليس منهم أحد فكر فى منحنا أذهانا ! وهذا
لأنهم لا يحملون ... مع أن الأحلام وحدها هى التى
أدت إلى كل ما فى العالم من اختراعات كان مجرد
التفكير فيها قبل أن تحقق ضربا من الجنون

الصوف الذى يشل تفكيره ، وينطى ذهنه ببطيئة
كثيفة من الغباء ... وأنا لا أشك فى أنه لا بد
منع لما أشرت به عليه ، فإذا فعل فسترين كيف
أبذر بذورى فى هذه الأرض البكر الخصبة فهل
يسرك هذا إذا فعلته يا حنة ؟ ! »

وشاع البشر فى وجه الفتاة ، وأقبلت على
والدها بكل ذاتها فقالت له : « أبى ! لقد طالما
حدثتني أنك تستطيع أن تجعل أغبي الناس أذكى
الناس ، فهل هذا حق يا أبى ؟ وهل أنت تؤمن
بنظريتك التى استحدثتها ، أم أنك تحلم بها وحسب ؟
أصبح يا أبى أنك تستطيع أن تمنح الأغبياء كباية
وحسن فهم ؟ أم ... »

ولم يشأ الأمير أن يجيب على ما سألت ابنته إجابة
صريحة جازمة ... إذ الحقيقة أنه لم يعد طور
التجارب والأبحاث فيما انتهى إليه - وإن لم يكن
قد انتهى بعد

- إن من المقاقير يا ابنتى ما يتناوله بعض
الناس فيكونون سحراء ، ونحن نستخدم هؤلاء
السحراء وننتفع بهم ... والذى يأكل الأفيون
يحلم وهو يقظان أنه ملك ، ولا شك أن مملكته
شئ حقيقى بالنسبة له ، وإن تكن خيالا بالنسبة
لنا ... ولا شك أيضا أن ذهنه ، خلال ذلك ،
يكون قويا جبارا ، بصرف النظر عما يؤول إليه
حاله بعد أن يفيق ... ولذا فهو يعرف من أسرار
الحياة فى غيبوبته ، ويدرك من كنه هذه الأسرار ،
ما لا يفهم منه فى بقلته قليلا ولا كثيرا ، ولا
يستطيع أن يدرك تأويله

فلم لا نجعل هذا الوهم حقيقة ، وهذا الخيال

ولقد كان أوتو صادقاً فيما حدس به من أن
جون ما كاسفيلد سيصبح فريسة لأحلام حلوة...
تثيرها في رأسه الفارغ تلك الصنوف الفاخرة من
الأشربات والآكال التي ذهب ليلتهما في غداثة...
فإنه ما كاد يخلو إلى نفسه في غرفته الفخمة في أعظم
فنادق الهايد بارك ، حتى توجه إلى النافذة ففرج
بين ستائرهما ، ووقف يعلأ ناظره من جمال الجنة
الفيحاء التي تتأرجح وتبرج أمامه... تحت قبة
السما الصافية التي أخذ الهلال يسبح في أعماقها ،
كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من نجوم الربيع
في إقباله... يا للمنظر العجيب الذي لم يكن لجون
عهد به من قبل ! هلم نصنع إليه إذ هو يتناجى ويحلم
مسحوراً بمفاتيح الطبيعة

« ... يا للفكرة !! إن هذا الرجل العجيب
يزعم أنه يخلق الأذهان كما يخلق الأطباء الأجسام !
حسن... ولم لا ؟ فكرة غريبة وشاذة... وأكثر
منها شذوذاً أن أحداً من الناس قبل هذا الرجل
لم يفكر فيها ، ولم تخطر له على بال !! وفي الحق ،
أنا لا أصدق مطلقاً أن في وسعه أن يطب أحد
المغفلين البلهاء فيجعله إسحق نيوتن مثلاً ، أو أنه
سيزود العالم بألف أديسون جديد^(١) بحيث يجعلهم
(تحت الطلب !) ... ولكن هذا السائل !؟ إنه
شيءٌ خلّاب من غير ريب ... والأطباء ...
لم لم يفكروا في مثل ذلك من قبل !؟ إنه سائل
لا يضر ، فلماذا لا آخذه معي !! إن الرجل المعجوز
يؤكد أنه يضمن لشاربه الدكاء والفظانة ، فلم

والهذيان ... لهذا يا حنة ... يا ابنتي ، لم أن أحلم
وأتسأى ...

— وهل تحققت أحلامك يا أبي ؟ هل وقعت
إلى ضالتك المنشودة ؟

— إلى موقن أنها قد تحققت ... وأثق أنني
أصلح رؤوس الأغبياء ، بل أمنحهم ذكاء ولبابة ...
فصاحبنا جون ما كاسفيلد مثلاً ، قد نسي في هذه
اللحظة طواحين مدينته المظيمة برادفورد ، وهو
قد اكتشف فجأة ما في هذا الليل من آيات وعجائب ..
إنه لا بد يرنو بعينه إلى نجوم السماء التي تتألق في
جونا الصحو ، ثم هو يسائل نفسه عما يخامرها من
الأحلام التي تولدها فيها هذه النجوم ... وهذا كله
بفضل كلماتي التي أثارت فيه تلك الأحلام ... وهو
لا شك منتقل من أحلامه الساذجة إلى ضرب من
التسأى الرفيع الذي سوف يشجعه ويحمّله إلى
تفكير أرق ... وسيسأل نفسه لماذا هو تاجر
بسيط ؟ وسيتنبه إلى النفر القليل من بني وطنه
الذين برزوا من المدن والقرى الوضيعة فأصبحوا
زعماء البلاد وذوى الصدارة في المملكة ، وهو لا بد
محدث نفسه لماذا لا يقتني آثارهم ليكون مثلهم ...
وبهذا يتنبه شعور القوة الكامنة فيه ، فيعمل من
فوره على توجيهها لخير ... ومن يدرى إلى أين
ينتهي به التطواف ؟!

وهنا ... تهتدت حنة من أعماقها كأنها لم
تؤمن بمد بما آمن به أبوها ، ثم قالت : « لقد
وجدت من المحال أن أتحدث إليه ... إنه كان يبدو
كأنه لا يشمر بوجودي !! »

وتبسم الأمير ابتسامة حنان وعطف

(١) لم نشأ أن نحور هذا التعبير لطرافته

وستمنستر... ويقف في القاعة فيلقى خطاباً سياسياً
يقرر به مصائر أوروبا... ويسمع بأذنيه ثناء الأعضاء
عليه ، وإعجاب الناس في الشرفات به ، وافتتان
الجميع ببلاغته وقوة عارضته ... ويسمع بعض
الحضور من بنى دائرته يتهايمسون : « لله أنت من
خطيب مصقع يا أخانا جون ! »

وكانت الساعة الثانية صباحاً ... فانكفأ إلى
فراشه وهو يحلم بالمجد وذبوع الصيت ... ثم تذكر
الغادة ... الفتاة الفينانية ... ابنة أوتو أوف
متكوقتش ... وعجب كيف لم تتراء له في أحلامه !
« حنة ! أين أنت يا حنة ؟ ! »

وعاد تاجر الأصواف إلى برادفورد ، وكلما مضت
الأيام اشتد اختلاف الناس في أمره ، وثاروا في
هذه المتناقضات التي كانت تبدر منه فينسبها بعضهم
إلى الجنون . ويردها بعضهم إلى ذكاء خارق ظهر
فجأة في جون

واشترى قصرًا منيفًا في لندن ... وأخذ يدعو
إليه كبار الموسيقيين

جون ما كليسفيلد ... هذا التاجر الغني الذي
لم يكن يفقه من الدنيا غير الشاء والثناء^(١) يصبح
أذنًا للموسيقى فلا يسمعهما إلا من زعمائها الفنانين
العباقرة !

ولم يقنع بتزيين جدران قصره بصور الفنانين
الإنجليز ، بل كان يرسل رجاله ليدخلوا منافسين في
أسواق الصور الإيطالية ، فيشتروا له القطع الفنية
التي يمجز أغني الأغنياء عن دفع ثمنها

(١) الثناء صوت الغنم

لا أجمله دائماً في جيبى ليحقق ما أصبو إليه من
من شهرة ومجد

إن هذا الأمير أوتو رجل حاذق صناع ...
ولقد عرفت ذلك لأول وهلة .. إن له لعينين ينفذان
في قواد الناظر إليه ، ويشعلان النار في رأسه ...
إنه يسكن في ذلك البيت العتيق ويحلم ... ويرسم
الخطوة للرجوع إلى وطنه .. الشرق ! الشرق العظيم
الساحر ... الشرق الذي يلهم الغرب دائماً ...
ولكن ... لله هذا العفريت الذي سجنه أوتو في
سائل القارورة ... تلك القعمم ! »

ثم ضرب يده في جيبه فأخرج الزجاجاة وراح
يرنو إلى سائلها العجيب الجليل المتلألئ ... حتى إذا
فتحتها ، وعبقت رائحتها في خياشيمه ، تبسم ضاحكاً
وتحدث إلى نفسه فزعم أنها ستكون أمحوبة
الأعاجيب في برادفورد ... ثم وضع منها في كوب
خمس عشرة نقطة ، وجعل على النقط ماء واحتسى
المزيج السحري ، الذي لم يكن له في حلقومه طعم
لولا الرائحة التي انبعت شذاها في أنفه ، فعرف أن
الماء غير الدواء ...

وكان يضحك أثناء ذاك ... ويحمد الله أنه
لا يوجد أحد من برادفورد ليستهزئ به وبتهكم
عليه ، إذ يغفل نفسه بتصديق هذه الخزعبلات !

ومضت خمس دقائق نسي بمدهن المقار الذي
انصب في جوفه ، وعاد إلى النافذة يستملج جمال
الهaidبارك ... ثم شعر فجأة بقوة تتدفق في أعصابه
وخيل إليه أن الهaidبارك مزدحم بجواهر حاشدة
تصني إليه وهو يخطب فيها ... ثم إذا هذه الجواهر
تندافع وراءه ، وهو على رأسها إلى دار البرلمان في

جون ما كلسفيلد ! هذا الكبش العظيم ! !
لا يوجد في معارض الفن من يقدر آياتها كما
يقدرها هو !
الذي لم يكن لأيام قلائل يفقه من أمور الدنيا
إلا النعاج والذهب الوهاج ؟ ! جون ما كلسفيلد ! !
ما شاء الله »

فهذا الذي يقوله هذا المين ، ناحية مما صار
إليه جون ... فهو إلى فصاحته وسمو تفكيره ، قد
أصبح رجلاً ممتازاً حاضر البديهة متوقد الذهن ،
لا يكاد يوجه إليه سؤال حتى يعطى جوابه الناضج
المبين في أسرع من البرق ، ثم هو يستعمل في
أحاديثه طرائق الأدباء المبرزين ، ولا يفتأ يضمنها
فقراً طليانية من بترارك وبو كاشيو وأضرابهما ...
وقد حار الناس في رفيقيه اللذين يلزمانه كظله
أينما سار وحيثما توجه ... هذا الرجل السمهور

وانتهى أكثر الناس إلى أنها إمارات جنون
من غير شك ، ستفتح لتاجر الأصواف مستشفى
المجازيب على مصراعيه

إسمع إلى هذا المين من أعيان الشمال يقول فيه :
« ينصب من نفسه خطيباً في السنترال هول
بوستمنستر فيخاطب الباب الناس ببلاغة لا عهد لهم
بها ، وبيان مشرق لم يسمعه من أنبغ زعمائهم ،
وفكر عميق مرتب لا يقدر عليه إلا الأقلون ... ؟ ..
أفذاك هو هذا الكاب القذر ... كبش برادفورد ...

عدد الرسالة السنوى الممتاز

بمناسبة العام الهجري

كتاب قيم خالد

يؤلفه أربعون من أقطاب البيان في جميع أقطار العروبة ،
ويشتمل على جملة من صفوة الرأي ومختار الكلام فيما يتصل

بمجد الاسلام وأدب لغته وحال أهله

سيصدر في يوم الاثنين المقبل ٢١ مارس في ٩٠ صفحة

ولما لم يكن له أى إلمام بالسياسة الفرنسية ، فقد وقف حائراً أمام صورة السيامي الداهية الذى درأ عن فرنسا أيما خطر خلال الحرب الكبرى ... وهنا خطر له بقاءه أن يعود أدراجه إلى مسكنه ليكتب نداء بناشد فيه الفرنسيين والأمريكيين أن يعملوا متعاونين لما فيه سلام العالم العام وأمنه وطمأنينته ، وأن يطرحوا سخائم الماضى التى ينفخ فى نارها الساسة للباناتهم الشخصية .. ولم يدر جون ماذا أثار فى خاطره هذه الفكرة ... لكنه التفت فوجد صاحبه الأمير أوتو قريباً منه ، ورأى ابنته حنة واقفة عند صورة تدقق فيها نظرها

— لقد كنت ترمق صورة السيو كلنسو بعينين مشوقتين !

— أوه .. هذا صحيح .. لقد أغرائى الاعلان الضخم ، فدخلت أنفرج بهذه التحف .. وأحسبك تذكر يا أوتو أننا كنا نتكلم عن هذا السيو كلنسو على مائدتك أمس !

— أجل . أذكر هذا

ثم لف ذراعه حول ذراع ماكسفيلد ، وراحا يذرعان العرض جيئة وذهاباً ، والأمير أوتو يشفق الأحاديث عن الفرنسيين والأمريكيين ، فيشرح لصاحبه تاريخهم وأحوالهم وسيكلوجيتهم

— .. ومن فى الانجليز يستطيع أن يهذب معلوماتهم عن الأمم الأخرى مثلك يا مستر جون .. على أنه قد باتى اليوم الذى تبت الدعاوة بينهم عن وطنى المنكوب ، ومبلغ ما اتى من التعاسة بسببهم فيصلحون بعضاً من أخطاء الماضى !

الأنشيب ، الذى يدعو الأمير ... وتلك الفتاة الحسناء الهيفاء القسيمة الوسيمة ، التى تشيع السحر فى جو المكان الذى تكون فيه

والدهش من أمر جون أنه لم يكن أعرف من أهل برادفورد بسر نبوغه وتفوقه ، إلا أنه كان يؤمن بأنه أصبح ظلاً لهذا الأمير أوتو ، وأنه لا ينطق ولا يفكر ولا يتدقق فى خطاباته إلا بوحى منه أو إيماء ، فإذا سأل سائل عن مسألة أتجه بعينيه الضعيفتين إلى عيني أوتو القويتين ، حتى إذا تم بينهما الاتصال الروحى الذى لا بد منه ، ولا يحصى عنه ، إنطلق يجيب فى فصاحة بالغة ، وبيان عذب قوى ، بحيث يتغلغل إلى سويداوات سامعيه ، ويسحرم عن أنفسهم ... فإذا فرغ وفاء إلى نفسه ، عرف أنه كان يتكلم بلسان جون ، ويفكر برأسه ... وأن القطرات التى شربها قبل أن يتكلم ليست هى التى واتته بهذا الكلام وذاك البيان ، وإن تكن حقاً قد مهدت لها

ولقيه أحد أصدقائه الكهول يوماً فى شارع أكسفورد فافتقر باسمًا وقال له : « أوه جون ! لشد ما تغيرت فى هذه الحقبة الأخيرة من حياتك ... ولشد ما نحن معجبون بك ... أجل يا ... فتى ! ... ومع ذاك ، فإنك لم تدخل الوزارة بعد ، وليس فى أعصائها من هو أكيس منك ولا أحذق ولا أصدق بياناً ... فلم لا تفعل ؟ »

وراغ جون بجواب مقتضب مؤدب ، ثم انفلت فى معرض فرنسى للصور حيث وقف مسبوهاً أمام صورة رائمة للسيو كلنسو ... نمر ياريس !

يذهب إلى قاعة ألبرت هول دون أن يصحب الأمير أو ابنته معه ... « ولماذا؟ أمن أجل هذا الوم الذي تسلط على فأحسب أنني لا أستطيع التفكير بدونه ولا الخطابة إلا بإجاء منه؟ لا ... لن يكون هذا بعد اليوم ... لا بد أن أستقل عن هذا الرجل الذي استلب إرادتي، وقبض على آلة تفكيرى، فلا تدور إلا بأذنه ... إن هذه فرصتى إلى الوزارة، وإن أرقى إليها على أكتاف الغير ... إن الناس فى برادفورد مقتنعون بمظمتى، والإنجليز كلهم مسحورون بشخصى، فإخوفى أنا ألا أكون شيئاً إلا بالمجوز أوتو؟ أكل هذا خداع فى خداع؟ ثم تذكر السائل فصمت قليلاً، وحدث نفسه فقال: « لا بأس سأتناول الجرعة قبل أن أذهب ... إنه شراب مقو يبعث فى النفس شجاعة وانشراحاً، وفى اللسان براعة وانطلاقاً، لكنه لا يخاق البيان ولا يوجد الفصاحة من العدم فى اللسان ... إن بلاغتى هى طبع فى كان مستوراً، وإن هذا السائل العجيب الذى أبحرته من الزجاجاة الخضراء هو الذى ساعد على اكتشافها ... إنه لم يصنع شيئاً غير هذا ... فلأشرب الجرعة إذن، ولأذهب بمفردى ... »

ثم شمر خجاة بالاحساس السحرى يتلبسه ... وبالقوة الخفية الهائلة تشيع فى أعصابه ... وهنا يتغير تفكيره، ويحس بحاجته الشديدة إلى أوتو متكوفتش ... وتذوب حماسه السابقة، وتبخر، ويؤمن من جديد أنه ليس شيئاً مذكوراً بنير هذا الرجل الأشيب الهائل، ويحس كما تعود أن يحس من قبل أنه لا يستطيع أن يتفوه بكلمة إلا إذا أوحاها إليه أوتو ... ويذكر حاله قبل أن يلقاه فى

— أنا؟ .. أنا لا أعرف من ذلك كثيراً ولا قليلاً أيها الأمير!

— إن كنت لا تعرف منه قليلاً ولا كثيراً، فبقليل من المذاكرة تستطيع أن تعرف كثيراً جداً والآن ... يجب أن نذهب مع حنة إلى مطعم سيرو فقد وعدتها بذلك ... أين هى ...؟

— أوه! إنها هناك ... ها هى ... مالها لا تريم عن هذا النقش السخيف ... أية صورة هذه التى تقف أمامها مأخوذة مسحورة ...؟ سبعة آلاف جنيه؟! ثمن باهظ ... إنى لا أشتريها بخمسة جنيهات إذا عرضت على!

وذاع صيت جون ماكسفيلد فى جميع أرجاء لندن .. ودهش الناس لم لا يكون عضواً فى الوزارة إن لم يكن رئيساً لها، وهو هذا الفكر العميق، والمحطوب المصقع، والكاتب الذى لا يشق له غبار وتكلم الناس فى هذا الصدد، وأكثروا فيه الحوار ولا سيما حينما أذيع اعتزام الحكومة عقد مؤتمر عام فى قاعة ألبرت هول لبحث موضوع « تخليها عن الصناعة للأهالى » وما ذاع من أن رئيس الوزارة والمستر جون ماكسفيلد هما وحدهما خطيبا هذا المؤتمر

وحدث تغير فجائى فى نفس المستر جون! فقد ثارت فيه كبرياؤه وعز عليه ألا يكون شيئاً إلا بهذا الأمير الأشيب أوتو متكوفتش ... وصمم أن يعد خطبته فى (تشعيب الصناعة^(١)) بنفسه وأن

(١) أى أن تنزل الحكومة عن الصناعة للشعب

هرم مطامحه فوق كتفيه هو لا فوق كتفي شخص آخر ... وكان هذه المرة جاداً في تصميمه ، معترفاً ألا يعتمد على أحد فيما يصبو إليه من رفعة ووزارة ومجد ...

ولم يبق على المؤتمر إلا أيام ، وكان يذكر صاحبه أوتو فتشرق أساريره مرة ، وتظم وتحتك صرات ... ثم سمع من أحد معارفه أن الأمير مريض ، فكان أول ما خطر له أن ينطلق من فوره فيزوره ... فلما كان في طريقه إلى شارع شارل ، حيث منزل أوتو متكوفتش ، جمعت الذكريات تتردد في خاطره وتلح في تردها ، ولم يستطع جون أن ينكر أيادي الأمير عليه .. والشهادة له بأنه صانعه .. وإن كانت كل تلك الهواجس تجعله في حيرة من أمره ...

— أبي مريض يا مستر جون ... إنه مريض جداً .. وهو مايفتأ يشكو بذات الرئة .. والأطباء يؤكدون أنها حادة ... لقد ضعف وهزل حتى قد لا تستطيع أن تعرفه إذا رأته

وبدا الغم في وجه الرجل ، وشاع فيه الحزن العميق ... ثم نظر إلى حنة في غير عمد ، فبهره منها هذا الشعر الأحمر الذهبي ... وإن لم يثر فيه إلا الاشفاق عليها ، والرثاء من أجلها ، والتفكير فيما يؤول إليه أمرها إذا مات أبوها

— حنة ! لا بد من استدعاء إخصائي في الأمراض الصدرية ... وأظن أن السير سبيريان هو عمدة الأطباء في ذات الرئة ... أليس لكم ممرضة يا حنة ؟!

دلائبها فيبتسم ضاحكاً مما كان فيه من غباء وغرارة وجهل ، ثم يرى إلى نفسه الآن رجلاً يشار إليه بالبنان ، ويجري ذكره على كل لسان ... وهذا بفضل الأمير أوتو !

« لا ... أنا هازل ... لا بد لي في ذلك اليوم الموعود من أوتو متكوفتش ... إنه رجل عبقري .. وأنا لا أكون شيئاً إن لم يصحبني إلى هناك ... هو ... أو ... حنة ... لا بد لي من أحدهما ... ولا بد أن يجلس في الصف الأمامي ليكون أثره بالغاً حده الأقصى في وجداني ... »

ثم سمع هاتفاً يردد في روعه هذا النداء : « أجل . أجل يا جون ما كسفيلد ... إياك أن تذهب إلى المؤتمر بدوني ... إنني أرغب أشد الرغبة أن أكون معك اليوم كما كنت معك بالأمس وقبل الأمس وفي كل مرة ... إن لدي أفكاراً وإن لدي خططاً ستعرفك إلى الذروة ... أسمعت ؟ إياك أن تنساني ... إحدرك أن تتحرك إلى قاعة ألبرت دون أن تصحبني ... »

ولم يكن هذا الهتاف وهماً ... لقد كان يتردد في أذنيه كأن أوتو واقف أمامه ... حتى أنه وقف وشكره ، وأكد له أنه لن يذهب وحده ... ثم مد إليه يده فصافحه ... وحينما فتح عينيه ... لم يجد أحداً في الغرفة معه !

وعرف أنه الوهم مرة أخرى ... وعاد يفكر من جديد في وجوب التخلص من هذا الخداع .. فصمم على أن يذهب إلى المؤتمر وحده وأن يبني مجده بيديه ... وأن يرفع اللبثات التي تشيد

جون خبر وفاته فزع أبما فزع ، وأصيب في تفكيره بطائف من الشلل قضى على كل ملكاته وكفاياته ، وتناول الخطبة المكتوبة فلم يستطع أن يقرأ منها حرفاً ، ثم حاول أن يذكر الغرض الذى من أجله ينعقد المؤتمر غداً فلم يستبين من ذلك شيئاً ... ووقف ليرتجل الخطبة فلم يقدر على صوغ عبارة واحدة .

وتذكر السائل السحري فجأة فبادر إلى أخذ الجرعة التى حـددها له المغفور له الأمير أوتو متكوفتش ...

ماذا أصاب السائل أيضاً ؟ ! أين الشذى الجميل الذى كان يفعم الخياشيم ويمجى حديدآ فى الأعصاب ؟ ما هذا السائل ينحط فى المدة كما ينحط الدواء الخبيث ، تعافه النفس ويتقزز منه الفم ؟ آه ! لقد ذهب السر المائل بذهاب الأمير أوتو ؟ ! يا لله ! لقد كانت نهاية المستر جون ما كاسفيلد الخطيب والفكر السياسى الداهية أغرب من بدايته ! وعند ما اقتربت اللحظة الرهيبة المهمة فى حياته ... ابتعدت عنه كالبرق عوامل النجاح ... يا للموت !

ووقف المستر جون باقى خطبته ... فاذا حدث ... ؟

« ماهذه الفهاهة ؟ ماذاك الى ؟ ماهذا التفكير السقيم ؟ من الذى دعا ذلك البهيم لينهق فى ذاك المؤتمر ؟ ما انظراته تترجرج كالزئبق هكذا ؟ » ... وبمثل هذه العبارات القاسية أنشأ المستمعون يسلقون جون بالسنتهم الحداد . وفى الحق ... لقد

— أنا هنا الممرضة والابنة يامستر جون ...

إن أبى يابى أن يمرضه أحد غيرى وناقشها المستر جون فى قيامها بتمريض أبيها ، ومع أنه أفنمها بأن السهر على صحة المريض مرهق لشبابها وأنه لا بد من ممرضة أخرى خبيرة بفنون التمريض إلا أنها لم تنشأ التخلى عن هذا الواجب المقدس ولم تقبل أن تنزل عنه لأحد

وعاد المستر جون ما كاسفيلد إلى فندق (رتر هوتل) ... وعاد أيضاً بفكر فى خطبته الزمعة فى قاعة (ألبرت هول) ، وهى تلك الخطبة التى ترسكز عليها كل آماله فى دخوله عضواً فى الوزارة ... ثم بدأ شئ من الأسف يخامره لمرض الأمير أوتو متكوفتش ... وتغنى لو عوفى قبل الموعد المضروب لإلقاء الخطبة ... ثم تخيَّله جالساً فى جميع الأندية والمسارح والمجتمعات التى كان يلقي فيها خطبه فى الصف الأول من المستمعين ، وتخيّل عينيه العميقتين تشعان السحر والكهرباء فى نفسه فيتدفق بياناً كما يتدفق صيّبٌ من السماء فيحيى الأرض بعد موتها ... ثم تخيل ضرورة حضوره هذا المؤتمر ليتم له النجاح المنشود وليفوز بعضوية الوزارة ... وأخذ يشك فى النجاح إن لم يحضر أوتو ... وأخذ الشك يكبر ويتعاظم حتى طغى على نفسه ، وعلى أفكار الزهو والكبرياء التى ثارت فى رأسه وصدره قبل ساعات ، ثم وقعت الواقعة ... ! فقد توفى أوتو متكوفتش ، الأمير الشرقى الساحر قبل موعد انعقاد المؤتمر بليلة واحدة ... فلما سمع المستر

بل آثر برادفورد الساكنة ، ولم يعد يقبل إلى لندن إلا مرة في رأس كل شهر ، حيث يقيم ليلة أو ليلتين في فندق ألتر هول ، ليشرّف من النافذة الحبيبة على الهايد بارك ... ويجتر هناك أحلامه

وتذكر السائل العجيب السحري مرة بعد وفاة الأمير أوتو بستة أشهر ... فراح يجمعهم في نفسه بعض العبارات : « ياله من سائل ! لقد كان خداعاً عظيماً ... ومع ذلك فما أظنه كان خداعاً صرفاً ، ولا وهماً محضاً » — وكان يجلس عند النافذة المطلة على الهايد بارك ، وهو يرسل هذه الكلمات ، وفي يده الزجاجاة الخضراء التي كانت ما تزال تحوي قطرات من السائل السحري ، كانت تشع سناء حلواً مشبعاً بالذكريات ، رغم الأشهر الستة الطويلة ولما نام أخذت الأحلام تسبح في رأسه المضطرب ، وسمع هاتفاً عجيباً يأمره أن ينهض من فوره ، فينطلق في شوارع لندن لأن حظاً جديداً ينتظره ... وقد يكون فيه إسماعه ...

وهب من نومه ليضحك ملء شذقيه لهذه الرؤيا الشاردة

وكان الليل جيلاً مقمرأ ، وكانت ليلة من أخريات الصيف اللندني العجيب ، فخطر له أن يحقق مدى ما في هذه الرؤيا من صدق ... من أجل ذلك لبس ثيابه ووضع فوق رأسه القبعة ، وهرب على الدرج وانطلق يذرع حدائق الهايد بارك إلى محطة فكتوريا ، وهو لا يدري ما الذي يدفعه لیسیر في هذا الطريق بالذات ... ولما بلغ كتدراثية وستمستر ... وقف وجهاً لوجه ، حائراً مرتبكاً

ظل الناس حيارى في أمر هذا الرجل ... يعلو ويعلو ويعلو حتى لا يكون علو ... ثم يهوى ويهوى ويهوى حتى لا يكون سُفل ... لقد ارتفع بالأمس القريب حتى لم يعد في انجلترا كلها من يدانيه بلاغة وفصاحة وإشراق بيان وسمو تفكير ، فباله الليلة قد هوى من حائق ؟ ! ليس أحد يدري ! حتى ولا جون نفسه ... فلقد وقف فوق المنبر يبرق ويحملك ... ويبحث عن كلمة أو كلمتين يقولهما ، ولكن الكلام كله التناث عليه ... حتى ريقه جف فلم يستطع أن ييلمه ، وكان رطباً أبداً ! وأخذت العيون ترمقه ، والألسن تسلفه ، ووقف مسكيناً حائراً كالطفل الضال في المدينة الصاخبة ... وذكر أوتو فتمتم بصلاة خافتة ، ودعاء حار أن يدركه الأمير الشرقي من عالم الأرواح ببعض سحره ... ولكن ... هيهات ! فلقد ساد قاعة المؤتمر صمت يشبه الموت ... وتبددت نفس المسكين لهفات وحسرات !

— « إنطق يا صاح ... تكلم ... إن برادفورد بريئة إذا طال هذا الحصر^(١) ... تكلم ... إنك موشك أن تقضى على شرفنا ! »

من كان يرسل هذا السخط في جو المجلس ؟ آه ! إنه رجل من برادفورد ! وهكذا سقط المستر جون ما كاسفيلد من عالم السياسة والمجد البراق سقطت لقيامته من بعدها ... ودخل إلى هذه الدنيا الهادئة المتواضعة ... دنيا المراعى والأغنام والأصواف ... ولم يعد يدور في خلدِه قط أن يضع إحدى قدميه في دار البرلمان العتيقة ، ذات البريق وذات السنا ...

(١) الحصر إلى وعدم استطاعة الكلام

أمام فتاة نحيلة ، منهوكة الجسم ، متشحة بملابس سوداء ... ما كاد ينظر إليها حتى عرفها !
 ولكن الفتاة انفتلت في شارع ضيق ، ثم دخلت منزلاً حقيراً ، فقال جون :
 « يا لله ! إنه لا يمكن أن يكون هنا مسكنها »
 ولم يدر ماذا يصنع ...
 ثم رأى كأنه يحلم ... وها هو شبح الأمير أوتو يدفعه نحو باب المسكن الذي انفتلت فيه الفتاة ..
 وها هي يد الشبح تمتد إلى الباب فتفتحه ... حيث رأى جون ما كاسفيلد حنة ، ذات الشعر الأحمر الذهبي ، واقفة خلفه !!
 وصاحت حنة مذعورة : « مستر ما كاسفيلد ! »
 ويتم المستر جون قصته فيقول :
 — « حقاً لقد كنت غمراً أبله لا أعرف ما الدنيا قبل أن أعرف حنة .. إنها خير من السائل العجيب السحري الذي اخترعه أبوها ألف مرة !!
 هأنذا أخطب خطباء أهل الأرض وأعظم مفكرهم بعد إذ تزوجتها »
 دريني ضربة

كل ثوب مصرى علم من اعلام الحرية

تغزلها وتنسجها لنا

شركة مصر للغزل والنسيج

وتبديعها جميلة متينة رخيصة

اطلبوا منتجاتها من

تجار المانيفاتورة بالقطر المصرى